Al-Daleel

The Atheistic Philosophical Interpretation of the Big Bang Theory: Review and Critique

Sa'd Al-Gharri
PhD in Islamic Philosophy, Al-Mustafa International University, Iraq. E-mail: s.alghorri@aldaleel-inst.com

Abstract

This study examines the Big Bang Theory from an epistemological and theological perspective, seeking to challenge attempts to invoke the theory as evidence in support of atheism. It proceeds from the premise that physical laws and scientific theories are incapable of explaining the origin of existence from nothingness. Owing to their methodological nature, such laws and theories describe the processes through which the universe evolves and develops, rather than addressing the ultimate cause or purpose underlying its existence. The study argues that the Big Bang Theory neither inherently disproves nor establishes the existence of a Creator; rather, it remains neutral with respect to the question of divine existence. It surveys a number of philosophical interpretations concerning the origin of the universe and then advances an epistemological critique, emphasizing that the theory remains a scientific hypothesis rather than a matter of absolute certainty. Particular attention is given to the concept of a state characterized by "zero volume and infinite density," which, according to the study, appears to conflict with fundamental rational principles such as the law of causality, the principle of affinity (sinkhiyyah), and the principle rejecting an infinite regress of causes. The study further examines the claim that intelligence and life could not have emerged from simple particles in the absence of a designer, and calls for a clear methodological distinction between scientific explanations concerned with how phenomena occur and philosophical explanations concerned with why they occur. It concludes by referring to Pascal's Wager as a philosophical argument in favor of belief in a Creator. Methodologically, the study employs both demonstrative rational inquiry and descriptive analysis. It focuses on identifying the paradoxes and epistemological ambiguities that, in its view, characterize certain scientific and atheistic interpretations, whether intentionally or unintentionally. The significance of the study lies in its attempt to offer a novel methodological framework for critiquing discourses that claim exclusive access to truth without recourse to self-evident rational principles, while proposing an epistemic standard by which scientific theories may be assessed in light of foundational rational criteria.

Keywords: the Big Bang Theory, atheism, law of causality, affinity, causation, religious interpretations, rational principles, Pascal's Wager.Free Will, Analytic Philosophy.

Al-Daleel, 2026, Vol. 9, No. 32, PP. 144-173
Received: 16/02/2026 | Accepted: 20/03/2026 | published: 15/06/2026
Publisher: Al-Daleel Institution for Studies and Research
© the author(s)

التأويل الفلسفي الإلحادي لنظرية الانفجار العظيم.. عرض ونقد

سعد الغري

دكتوراه في الفلسفة الإسلامية، جامعة المصطفى العالمية، العراق.

البريد الإلكتروني: s.alghorri@aldaleel-inst.com

الخلاصة

تتناول هذه الدراسة نظرية الانفجار العظيم من منظور معرفي وعقدي، بهدف تفنيد المحاولات التي تسعى إلى توظيف هذه النظرية بوصفها داعمًا للإلحاد. تنطلق الدراسة من فرضية مؤدّاها أنّ القوانين الفيزيائية والنظريات العلمية لا يمكنها تفسير أصل الوجود من العدم؛ إذ إنّها ـ بطبيعتها المنهجية ـ تصف كيفية تطوّر الكون، وليست في صدد بيان العلّة الغائية أو السببية وراء وجوده. توضّح الدراسة أنّ نظرية الانفجار العظيم لا تنفي ولا تثبت بالضرورة وجود خالق، أي أنّها محايدة إزاء القضيّة الإلهية (لا بشرط). وتستعرض الدراسة نماذج من التفسيرات الفلسفية لنشأة الكون، ثمّ تنتقل إلى نقد معرفي يركّز على أنّ النظرية تظلّ فرضيةً علميةً غير يقينية، وتقوم على مفهوم "الحجم صفر والكثافة غير المتناهية" الذي يبدو مناقضًا للبدهيات العقلية مثل قانون العلّية، وقانون السنخية، وقاعدة امتناع تسلسل العلل. كما تناقش استحالة نشوء الذكاء والحياة من ذرّات بسيطة في غياب مصمّم، وتدعو إلى الفصل المنهجي بين التفسير العلمي للكيفية والتفسير الفلسفي للسببية. وتختتم الدراسة بإشارة إلى رهان باسكال الفلسفي حول ضرورة الإيمان بالخالق. اعتمدت الدراسة المنهج العقلي البرهاني إضافةً إلى المنهج الوصفي، مركّزةً على كشف المفارقات والالتباسات المعرفية التي يقع فيها بعض العلماء أو الدعاة للإلحاد، سواء بقصد أو بغير قصد. وتكمن أهمّية هذه الدراسة في تقديم مقاربة منهجية جديدة تنقد الخطابات التي تحتكر الحقيقة دون الرجوع إلى المبادئ العقلية الفطرية، وتسعى إلى وضع ميزان معرفي يُخضع النظريات العلمية لمعايير قبول تراعي البدهيات العقلانية.

الكلمات المفتاحية: الانفجار العظيم، الإلحاد، قانون العلّية، السنخية، السببية، التفسيرات الدينية، المبادئ العقلية، رهان باسكال.

مجلّة الدليل، 2026، السنة 9، العدد 32، ص. 144 ـ 172

استلام: 2026/02/16 | القبول: 2026/3/20 | النشر: 2026/06/15

الناشر: مؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث

© المؤلّف

المبحث الأوّل: مطالب تمهيدية

أوّلًا: تعريف الانفجار العظيم (The Big Bang)

هي نظريـة علميـة فيزيائيـة تعتمـد في فكرتهـا على أنّ هـذا الكـون كان في الأصـل في حالة شـديدة الحـرارة والكثافـة مـا أدّى إلى تمـدده، وكان هـذا الكـون جـزءًا واحـدًا في الأصـل، وتفـترض أنّ الكـون بـدأ منـذ حـوالي 13.8 مليـار سـنة كنقطـة صغـيرة (ذات كثافـة وحـرارة عاليـة جـدًّا)، ثـمّ توسّـع وتطـوّر ليشـكّل الكـون الشاسـع الذي نعرفـه اليـوم. والمـراد بالانفجـار هنـا ليـس الانفجـار التقليـدي في الفضـاء، بـل تعـني التوسّـع الهائـل مـن نقطـة صغـيرة.

يصـور لنـا سـتيفين وينـبرج (Steven Weinberg) هـذه المسـألة بقـوله: «في البـدء حـدث انفجـار، ولكنّـه ليـس انفجـارًا كالذي يمكـن أن تشـاهده على الأرض، وإنّمـا هـو انفجـار حـدث في كلّ مـكان وفي آن واحـد» [وينـبرج، الدقائـق الأولى مـن عمـر الكـون، ص 12 و13].

ويعطـي مزيـدًا مـن الوصـف حـول هـذا الانفجـار، فيقـول: «في حـوالي جـزء مـن مئـة مـن الثانيـة، وهـو أبكـر وقـت يمكننـا التحـدّث عنـه بـشيء مـن الثقـة، كانـت درجـة حـرارة الكـون تبلـغ حينهـا مئـة ألـف مليـون درجـة مئويـة. ويعـدّ هـذا أكـثر سـخونةً بكثـير مـن درجـة حـرارة قلـب نجـم هـو الأكـثر سـخونةً.. أكـثر بكثـير! وفي الواقـع، لا يمكـن لأيٍّ مـن مكوّنـات المـادّة العاديـة، مـن جزئيـات، أو ذرّات، أو حـتّى نـوى الذرّات أن تجتمـع معًـا ... كان الكـون مشـتعلًا بالضـوء» [المصـدر السـابق، ص 5].

وبسـبب الحـرارة والكثافـة بـدأ هـذا الكـون بالتمـدّد الأوّل، ثـمّ بـرد الكـون مكوّنًـا جسـيماتٍ أدنى مـن الذرّة مثـل البروتونـات والنيترونـات والإلكترونـات، فتكوّنـت نويّـات ذرّيـة صغـيرة وبسـيطة في الدقائـق الـتي تلـت الانفجـار العظيـم مبـاشرةً، ولكـنّ هـذا الأمـر احتـاج لآلاف السـنوات قبـل أن تتكـوّن ذرّات متعادلـة كهربائيًّـا.

وبهـذا الانفجـار الهائـل هبطـت درجـات الحـرارة بسرعـة فائقـة، واسـتمرّ هـذا الانخفـاض الهائـل في درجـات حـرارة الكـون بحسـب وينـبرج حـتّى أصبـح باسـتطاعة النـواة الخفيّـة أن تجمـع بسرعـة لتكـوّن نـواة خفيفـة أكـثر اسـتقرارًا، وهي نـواة الهيليـوم، الـتي تحتـوي على بروتونـين ونيوترونـين، يقـول: «في نهايـة الدقائـق الثـلاث الأولى كان محتـوى الكـون مؤلّفًـا بصـورة أساسـية مـن الضـوء، والنيترونـات، والنيترونـات المضـادّة، وكانـت هنـاك أيضًـا كمّيـة صغـيرة مـن الأنويـة

الذرّية التي كان ٪73 منها من الهيدروجين، و٪27 منها هيليوم، وبدأت حالة التكاثف، حتّى انتهى هذا التكاثف إلى انهيار المادّة على ذاتها لتكوّن مجرّات الكون الحالي ونجومه» [المصدر السابق، ص 15 و16].

وكانت أغلب الذرّات التي نتجت من هذا الانفجار العظيم من الهيدروجين والهيليوم والليثيوم، ثمّ التحمت الكثير من السحب الضخمة مع هذه العناصر لتكوّن النجوم والمجرّات، ثمّ تشكّلت عناصر أثقل من خلال التفاعلات الكيميائية في الانصهار النجمي وأثناء خلق هذه العناصر.

ويعتقد كذلك أنّ المجرّات كانت في الماضي قريبةً من بعضها، وهذا ما يفسّره ابتعادها الدائم عن بعضها اليوم، وأنّه بحدوث الانفجار العظيم بدأ الزمان والمكان، فلا يوجد قبل الانفجار زمان ولا مكان، فالزمن بحسب علماء الفيزياء بدأ بعد الانفجار العظيم مباشرةً.

ثانيًا: السير التاريخي لنظرية الانفجار العظيم

في عام 1927 عرض العالم البلجيكي والقسّ الكاثوليكي جورج لومتر (Georges Lemaître)[1] مسألة الانفجار العظيم التي تقول إنّ الكون كان في بدء نشأته كتلةً غازيةً، عظيمة الكثافة واللمعان والحرارة، ثمّ بتأثير الضغط الهائل المتأتّي من شدّة حرارتها حدث انفجار عظيم فتق الكتلة الغازية وقذف بأجزائها في كلّ مكان، وفي اللحظات الأولى من الانفجار ارتفعت درجة الحرارة إلى عدّة تريليونات درجة مئوية، فخُلقت فيها أجزاء الذرّات، ومن هذه الأجزاء خلقت الذرّات، ومن هذه الذرّات تألّف الغبار الكوني الذي نشأت منه المجرّات فيما بعد، فتكوّنت مع مرور الوقت الكواكب والنجوم والمجرّات. [هوكنج، تاريخ موجز الزمان من الانفجار الكبير حتّى الثقوب السوداء، ص 106 وما بعدها].

فأصل الفكرة في العقد الثالث من القرن العشرين، أمّا أصل المصطلح (الانفجار العظيم) فقد صيغ عام 1949 من قبل عالم فيزياء الفضاء فريد هويل (Fred Hoyle)، الذي سخر من فكرة أنّ الكون بدأ بانفجار واحد، مع اعتقاده بأنّ الكون يمتدّد للأبد، رغم أنّ المصطلح أصبح لاحقًا الاسم الشائع للنظرية. [انظر: هوكنج، التصميم العظيم، ص156 و157]

1- جورج لوميتر (1894 - 1966): فيزيائي وعالم فلك بلجيكي، قام بدراسات مهمّة في حقل الأشعّة الكونية، وهو الذي صاغ الانفجار الكبير التي تتحدّث عن بدء نشوء الكون من انفجار كوني كبير، واقترح عام 1927 فكرة أنّ الكون في حالة تمدّد، ونشر ما أسماه "فرضية الذرّة البدائية". انظر: البعلبكّي، معجم أعلام المورد؛ هوكينج، الكون في قشرة جوز، ص31.

المبحث الثاني: نشأة الكون عند الفلاسفة الطبيعيين

إنّ موضوع علم الفلسفة يبحث عن الوجود؛ لذلك فإنّ أوّل سؤال يتبادر للأذهان وجودنا ووجود الكون، فنرى الفلاسفة الطبيعيين أوّل من بحث فلسفيًّا في وجود أصل الكون، ولكن كان بحثهم معتمدًا على بعض المعطيات والمسلّمات من العلوم الأخرى التي لم تكن بالتطوّر الذي عليه اليوم، فنشأت تيّارات فلسفية أطلق عليها فلاسفة ما قبل سقراط، ومعظمهم أقرّ بأنّ للوجود أصلًا مادّيًّا؛ أي بعيدًا عن المثاليات والوعي، وهذا التيّار عرف بالفلاسفة الطبيعيين الأوّلين، وذلك يعزّز علمية الأطروحات التي قدّموها، وأغلب هؤلاء الفلاسفة من أصل يوناني، ويقال في تاريخ الفلسفة إنّ الفلسفة يونانية بالضرورة! [زكي نجيب محمود وأحمد أمين، قصّة الفلسفة اليونانية، ص 105 - 115]

أوّلًا: الفيلسوف طاليس الملطي (Thales of Miletus)

أوّل فيلسوف طبيعي بحث في أصل الكون، ويؤرخ له في تاريخ الفلسفة على أنه أول الفلاسفة، وبحكم الطبيعة المحيطة به؛ إذ إنّه عاش في جزيرة، فافترض أنّ أصل الكون هو الماء، وقد يكون طاليس قد تأثّر بالأديان التي كانت في وقته، إلّا أنّه أشار إلى الماء بوصفه عنصرًا أوّليًّا أنطولوجيًّا، ومن خلاله تشكّلت باقي العناصر.

وذكر طاليس أنّ الكائنات الحيّة بما فيها الحيوانات والنباتات تحتاج إلى الماء كعنصر أساسي، ودعم رأيه من خلال فكرة الرطوبة، فالمبدأ الأساسي عنده أنّ من يتغذّى من شيء يتكوّن منه بالضرورة، كما أنّ الحيوان يولّد من الرطوبة، وتنمو الجراثيم من الرطوبة، فما يولد من شيء فسيتكوّن منه حتمًا، وكان اعتبار الماء عنصرًا أوّليًّا خلاصة لتأمّل طاليس للطبيعة ولدورة حياة الكائنات الحيّة. [مجموعة أكاديميين سوفياتيين، الموسوعة الفلسفية، ص 284]

ثانيًا: الفيلسوف هيراقليطس(Heraclitus)

يمكن تلخيص فكرة هيراقليطس في أصل الكون في كلمة التغيّر، فالأشياء والموجودات بالنسبة له في تغيّرٍ مستمرٍّ، وقال في هذا الصدد: «أنت لا تنزل في مياه النهر الواحد مرّتين، فإنّ مياهًا جديدةً ستحلّ محلّ الأولى وتجري حولك».

[Diels, H., & Kranz, W. (1952). Die Fragmente der Vorsokratiker (6th ed., Vol. 1, DK 22 B12). Weidmann]

وذهب إلى أنّ النار هي العنصر الأوّل في حال كان من الممكن إرجاع العناصر إلى عنصر واحد

أوّلي، إلّا أنّه أصرّ على أنّ الأصل هو الحركة. فالاستقرار عدم وموت للعالم، والتغيّر يكون بالصراع بين الأضداد، فيحلّ بعضها محلّ الآخر، وهذا المبدأ لا يقع فقط على الطبيعة والعالم المادّي، بل من الممكن أن يطبّق على حاجات الإنسان ورغباته، فبالنسبة لهيراقليطس لولا المرض لما اشتهى الإنسان الصحّة، وكأنّه لا يدرك قيمتها إلّا من خلال نقيضها.

وتجدر الإشارة إلى أنّ النار التي يعتقد هرقليطس إنّه يراها هي المبدأ الأوّل الذي تصدر عنه الأشياء وترجع إليه، لا النار التي ندركها بالحواسّ، بل نار إلهية لطيفة جدًّا أثيرية، نسمة حارّة حيّة عاقلة أزلية أبدية تملأ العالم، يعتريها وهن فتصير نارًا محسوسةً! ويتكاثف بعض النار فيصير بحرًا، ويتكاثف بعض البحر فيصير أرضًا. [يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 30]

المبحث الثالث: أهمّ الأدلّة على الانفجار العظيم وخواصّه

يذكر بعض من يتمسّك بالانفجار العظيم عدّة مؤيّدات أو أدلّة على اعتباره أوّل الكون، ويخلص منها إلى وجود خصائص للكون، منها:

أوّلًا: توسّع الكون

عام 1929 رصد عالم الفلك إدوين هابل (Edwin Hubble) باستخدام المقراب (Telescope) أنّ المجرّات البعيدة (التي تبعد عنّا ملايين السنين الضوئية) تبتعد عن بعضها بسرعات كبيرة تتناسب طرديًّا مع بعدها عن الأرض. ولا يُعزى هذا التباعد إلى وجود قوّة دفع مستمرّة تؤثّر على هذه المجرّات في الوقت الحالي، بل هو نتيجة طبيعية لتمدّد الفضاء نفسه منذ نشأة الكون. ووفقًا لنظرية الانفجار العظيم، فإنّ هذا التمدّد بدأ من نقطة بالغة الصغر تُسمّى أحيانًا "النقطة المتفرّدة" (singularity) منذ حوالي 13.8 مليار سنة، ويعدّ التمدّد المستمرّ خاصّيةً جوهريةً للكون، ممّا يعني أنّ المسافات بين المجرّات تزداد بشكل مطّرد مع مرور الزمن.

[Hubble, E. A relation between distance and radial velocity among extra-galactic nebulae, 168 - 173]

ثانيًا: وفرة العناصر الخفيفة

تتوافق وفرة العناصر الخفيفة في الكون مع توقّعات نظرية الانفجار العظيم؛ إذ كان يعتقد

أنّ هناك وفرةً من العناصر الخفيفة (مثل الهيدروجين، والهيليوم، والديوتيريوم، والليثيوم)، وهذه العناصر يعتقد أنّها قد تكوّنت في الدقائق الثلاث الأولى من تكوّن الكون، فيما يعرف بـ "التخليق النووي البدائي" (Big Bang nucleosynthesis)[2]، وتعدّ هذه المسألة دليلًا على الانفجار العظيم باعتباره يتنبّأ بوجود نسبة معيّنة من العناصر الخفيفة، وهذه النظرية تتوافق مع الرصد الفلكي الذي طوره جورج غاموف (George Gamow)[3] مع تلميذه رالف ألفر (Ralph Alpher) وروبرت هيرمان (Robert Herman) عام 1948 في الورقة المعروفة باسم "نظرية ألفا بيتا غاما" (Alpher-Bethe-Gamow paper)، التي وصفت نشأة العناصر الخفيفة من "كرة نار أوّلية" بعد الانفجار الكوني[4].

ثمّ بعد أن نشأت هذه العناصر الأوّلية في الكون المبكّر، تكوّنت النجوم والمجرّات منها.

ثالثًا: إشعاع الخلفية الكونية الميكروي (CMB)

تمّ اكتشاف هذا الإشعاع في عام 1964[5]، ويُعدّ دليلًا قويًّا على صحّة نظرية الانفجار العظيم، فهو إشعاع كهرومغناطيسي ضعيف، يملأ الكون كلّه، ويعدّ بقايا حرارة ناتجة عن الانفجار الكبير. ووصف بالميكروي لأنّ طيفه اليوم يقع في نطاق الموجات الميكروية (microwave)؛ نتيجة تمدّد الكون وبرودة الإشعاع مع الزمن.

يقول ستيفن هوكنيج (Stephen Hawking): «إنّ العلماء وجدوا بصماتٍ أخرى تدعم تصوّر الانفجار الكبير عن كون مبكّر ساخن وصغير الحجم جدًّا، فعلى سبيل المثال خلال الدقيقة الأولى أو نحو ذلك، كان الكون أسخن من مركز نجم نموذجي، وأثناء هذه الفترة كان الكون كلّه يعمل كمفاعل نووي، وقد توقّفت هذه التفاعلات عندما تمدّد الكون وبرد بدرجة كافية» [هوكينج، التصميم العظيم، ص 157 و158]. فالكون أوّل ما بدأ كان حارًّا جدًّا، ثمّ يبرد شيئًا فشيئًا مع مرور الوقت.

2- هو العملية الكونية التي تكوّنت خلالها النوى الذرّية الأولى بعد الانفجار العظيم بنحو ثلاث دقائق. توضّح هذه المرحلة كيف نشأت العناصر الخفيفة مثل الهيدروجين والهيليوم والليثيوم، وتُعدّ ركيزةً أساسيةً في فهم تطوّر الكون المبكّر وتركيب مادّته المرئية.

3- جورج غاموف (1904–1968) فيزيائي نظري وعالم كونيات سوفيتي، ساهم بعمق في فهم البنية الذرّية ونشأة الكون. يُعدّ أحد الآباء المؤسّسين لنظرية الانفجار العظيم، وأحد أبرز المروّجين للعلوم في القرن العشرين من خلال أبحاثه وكتبه المبسّطة.

4- صرّحوا بذلك في بحثهم الموسوم بـ "The Origin of Chemical Elements".

5- وقد اكتشفه العالمان أرنو بنزياس (Arno Penzias) وروبرت ويلسون (Robert Wilson) اللذان كانا يعملان سنة 1964 في شركة Bell Labs على هوائي راديوي حسّاس جدًّا، فلاحظا وجود ضوضاء (تشويش) مستمرّة لا تختفي مهما غيّرا اتّجاه الهوائي، حتّى أنّهما نظّفا الجهاز من فضلات الطيور، ومع ذلك بقيت الإشارة، فأدركوا أنّ هذه الضوضاء هي إشعاع قادم من كلّ اتّجاه في الكون.

رابعًا: وجود الكون من العدم

بناء على مبنى المنكرين لوجود الإله، فإنّهم يظنّون أنّ الكون وجد من لا شيء، فقد تبنّى الفيلسوف برتراند راسل (Bertrand Russell) هذا الموقف في جداله حول وجود الإله بقوله: «يجب أن أقول إنّ الكون موجود، وهذا كلّ شيء» [Bertrand Russell and Frederick Copleston, The Existence of God, in John Hick, p 175]. إنّهم يتعمّدون إنكار المنطق الأساسي الذي يعتمدون عليه في العلم، بأنّ لكلّ شيء موجود مسبّبًا (لكلّ معلول علّة).

خامسًا: كيف ساعد الانفجار العظيم الملحدين في دعواهم

تعدّ نظرية الانفجار العظيم ـ مثلها مثل أيّ اكتشاف فيزيائي آخر ـ مجرّد تفسير علمي لما حدث في بداية الكون. لكنّ بعض الملحدين يرون فيها ـ كما أشرنا سابقًا ـ تفسيرًا طبيعيًّا لنشأة الكون يُغني عن وجود خالق إلهي؛ إذ تفيد هذه القراءة بأنّ الكون نشأ من خلال عملية طبيعية صدفية، دون أن تستند إلى مقدّمات علمية أو فلسفية قاطعة؛ إذ نصّ هوكنج الى هذه المسألة بقوله: «الخلق التلقائي هو السبب في وجود شيء بدلًا من لا شيء، وفي وجود الكون، وفي وجودنا نحن». [Hawking, S., & Mlodinow, L, The Grand Design, p. 180].

في هذا السياق، يذهب الفيزيائي فيكتور شتينجر (Victor Stenger) إلى القول بأنّ الكون "لا مسبّب له"، و"ربّما قد خرج من العدم" [Stenger, Has Science Found God?, Free Inquiry, Vol. 19. No. 1, 2004]. ومع ذلك، فإنّهم في هذه الصياغة لم يؤكّدوا خروجه حتمًا من العدم، بل استخدموا كلمة "ربّما"، متخلّين بذلك عن الدقّة العلمية التي يلتزمون بها في التجارب العملية، وهذا يشير إلى أنّ مثل هذه الاحتمالات لا تحمل قيمةً علميةً حقيقيةً.

المبحث الرابع: نقد نظرية الانفجار العظيم

لا يمكن إنزال نظرية الانفجار العظيم على محكّ القول بوجود خالق للكون أو نفيه دون تثبيت معيار معرفي مسبق يضبط العلاقة بين النظرية العلمية والقضيّة الفلسفية والتفسير العلمي لها؛ وعليه، نذكر تمهيدًا يمثّل ذلك الميزان الذي نخضع عليه النظرية لنتبيّن: هل تحيل دلالاتها التفسيرية إلى إثبات علّة أولى (خالق)، أم إلى نفيها، أم أنّها تظلّ صامتة إزاء هذا السؤال بوصفه خارجًا عن نطاق المنهج التجريبي؟

أوّلًا: القوانين العقلية الفطرية لمعرفة الواقع

لا يمكن تقييم نظرية علمية بميزانٍ خاصٍّ بعلم آخر، وإلّا وقعنا في النسبية المرفوضة؛ لذلك لا بدّ من الانطلاق من قوانين عقلية فطرية يسلّم بها كلّ عقل سليم، وهي الأساس في أيّ معرفة معتبرة. فتحصيل المعلومات النظرية يستند إلى معلومات بدهية سابقة؛ إذ يقول الحكماء: «كلّ تعليم و تعلم ذهني فبعلم قد سبق» [ابن سينا، برهان الشفاء، ج 1 ص 29]، فكما أنّ التاجر لا ربح له بلا رأس مال، فكذلك العقل لا بناء معرفيًّا له بلا بدهيات.

وعن طريق هذه المعلومات الموجودة في الفطرة الإنسانية يمكننا أن نزن المعلومات القادمة لدينا ونصحح المسير، مثلها مثل القوانين التي اكتشفها علماء الطبيعة من الواقع كقوانين نيوتن وقانون باسكال، ولكنّ الاختلاف في أنّ القوانين التي نروم الحديث عنها هي قوانين موجودة في الفطرة الإنسانية السليمة، ولا يخلو منها أيّ فكر سليم.

يقول هوكينج في كتابه "التصميم العظيم": «يقول معظم العلماء إنّ قانون الطبيعة هو القاعدة التي تقوم على الانتظام الملحوظ، وتمدّنا بتنبّؤات تذهب خلف الأوضاع الراهنة التي تقوم عليها. على سبيل المثال ربّما نلاحظ أنّ الشمس قد أشرقت من جهة الشرق كلّ صباح طيلة حياتنا، فنفترض القانون التالي "الشمس تشرق دومًا من جهة الشرق"» [هوكينغ، التصميم العظيم، ص 38].

هذه القوانين رغم فطريتها ووضوحها عند التنبيه عليها ألّا أنّها قد تكون ضمن اصطلاحات صعبة غير واضحة لبعضهم، ولكنّه حين التأمّل يلاحظ بداهتها وبساطتها، وسنذكر مورد الحاجة هنا.

أ ـ قانون الهوية

لكلّ شيء طبيعة معيّنة تمثّل حقيقته، وبها يشترك مع أفراد تلك الطبيعة، وبها يختلف عن أفراد الطبائع الأخرى، ولكلّ طبيعة لوازم وآثار معيّنة تختلف عن لوازم الطبائع الأخرى وآثارها.

فالنار تختلف عن الماء بأنّها تحرق والماء يبرّد، والإنسان يختلف عن الحيوانات الأخرى بتفكيره، فلكلّ حقيقة مميّزاتها الخاصّة التي تكوّن هويتها الخاصّة بها، ويستحيل أن تختلف أو تتخلّف عن هويتها، فالطبائع الخاصّة تشترك مع بعضها في مميّزاتها، فيستحيل أن نرى ضمن طبيعة النار نارًا لا تحرق، ويستحيل أن نرى ضمن طبيعة الماء ماءً لا يبرّد.

فكلّ هوية ضمن طبيعة معيّنة لا يمكنها أن تنسلخ عن هذه الطبيعة، هذا القانون الواضح يسمّى بـ"قانون الهوية"[6].

ب ـ قانون العلّية

هذا القانون البدهي البسيط الذي يلتزم به الجميع عمليًّا، يبيّن أنّ كلّ شيءٍ حادثٍ في الوجود ـ بمعنى أنّه لم يكن ثمّ كان ـ لا يمكن أن يخرج من العدم إلى الوجود بنفسه، بل يفتقر إلى سببٍ غيره يخرجه من العدم إلى الوجود.

فالحادث احتاج إلى سبب وعلّة أخرجته من العدم الى الوجود، فنحن لم نكن موجودين ثمّ وجدنا؛ لأنّ الوجود ليس ذاتيًّا لنا لجواز انفكاكه عنّا وهذا واضح، إذن هناك من أوجدنا وأخرجنا من حيّز العدم، وهذا السبب يعبّر عنه بحسب المصطلح "العلّة" أو "السبب"، فيستحيل صدور شيء ممكن من العدم إلى الوجود من دون علّة وسبب ترجّح وجوده، فلكلّ واحد من الموجودات التي تشاهَد في العالم أصلًا وعلّةً يستند في نشأته إليها، كما أنّ للتغيّرات والتبدّلات التي تحصل فيها عللَها هي الأخرى.

فلو ضربنا زجاجةً بحجر لانكسرت، ولو أجرينا ماءً في جدول لجرى الماء إلى حيث ما أمكن له ، ولبلّ النقاط التي يلامسها، حتّى أنّ الماء يجرى في خُلل الجبال وشقوقها ما وجد إلى ذلك سبيلًا. وهذا هو أصلٌ عامٌّ في النشوء وفي التغيّرات المشهودة في موجودات العالم. [انظر: الطهراني، معرفة الإمام، ج 1، ص 197]

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «كلّ معروفٍ بنفسه مصنوعٌ، وكلّ قائمٍ في سواه معلولٌ» [نهج البلاغة، الخطبة 186].

يقول ابن سينا: «ما حقّه في نفسه الإمكان، فليس يصير موجودًا من ذاته، فإنّه ليس من وجوده من ذاته أولى من عدمه من حيث هو ممكن، فإن صار أحدهما أولى فلحضور شيء، أو غيبته، فوجود كلّ ممكن الوجود من غيره» [ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، ج 3، ص 19].

6- وهذا ما حاول الملحدون ضربه في ادّعائهم أنّ النقطة المفردة هي هي وهي غيرها، فهي هي من حيث إنّها كوّنت الانفجار العظيم، وهي غيرها من حيثية كونها عدمًا قبل الانفجار العظيم، وهذا يؤدي الى اجتماع النقيضين، هي هي وهي ليست هي، كما سيأتي الإشارة إليه في الردود التفصيلية.

جـ ـ قانون السنخية

مفاده أنّ العلّة والمعلول يشتركان في حقيقة واحدة، ويتفاوتان بالكمال والنقص فقط، واستنادًا إلى القاعدة العقلية الفطرية (فاقد الشيء لا يعطيه)، يستحيل أن يصدر عن الشيء ما ليس من سنخه؛ فالنار لا تصدر إلّا حرارةً، وشجرة الرمّان لا تثمر إلّا رمّانًا. فلو أُلغي هذا القانون لاختلّ نظام السببية، وصار ممكنًا أن يخرج من الثلج نار، ومن بذور التفّاح موز، وهو ما يخالف العقل الفطري والمشاهدة العلمية. [انظر: ابن سينا، الشفاء - الإلهيات، المقالة السادسة، العلّة والمعلول]

هذا القانون الفطري الواضح يبيّن لنا لماذا تصدر حرارة من النار دائمًا؟ لماذا لا يصدر عن شجرة التفّاح إلّا تفّاح؟ فهناك نوع من التلازم بين النار والحرارة فالحرارة من سنخ النار؛ لذلك تكون النار حارّةً دائمًا، فالنار لا تصدر إلّا الحرارة، ولا تصدر الثلج.

إذن لولا هذا القانون لما أشكلنا على شخص حينما يقول لنا إنّه أخرج لنا من الثلج نارًا، أو إذا قال إنّ بذور التفّاح أثمرت موزًا! فلا يبقى قانون محافظ على قانونيته وتصير الأمور عبثيةً وفوضويةً، فالاعتماد على هذا القانون بصورة فطرية عند النفس الإنسانية أمر مسلّم وإن كان غير منبّه عليه.

دـ قانون امتناع تسلسل العلل

بمعنى تسلسل العلل الموجدة للأشياء، بنحوٍ تكون مجتمعةً مع بعضها في الوجود. فمثلًا من المحال أن نقول إنّ (أ) مثلًا معلولٌ لـ (ب) في وجوده، و(ب) لـ (جـ)، و(جـ) لـ (د) وهكذا لا إلى نهايةٍ تنتهي عندها سلسلة العلل والمعلولات. وهذا قانون مهمٌّ جدًّا في المعرفة، وكذلك في العلوم، فلولا ذلك لم يبحث العلماء عن العلل القريبة، وتركوا أمرها لعدم جدواها؛ لأنّها لو لم تكن تتوقّف عند علّة أساسية، فلا ثمرة في بحثنا عنها.

هـ ـ الممكن والواجب

كلّ موجود ينقسم عقلًا إلى واجب الوجود أو ممكن الوجود. فالوجود إن حُمِل على الخالق فهو ضروري لذاته، لا يحتاج إلى علّة، كالبياض للبياض. وأمّا الإنسان فالوجود له ممكن؛ لأنّه وُجد بعد عدم ويتوقّف على علّة. وأمّا شريك الباري فوجودُه ممتنع، كوصف الإنسان بالحجرية. واستحالة التسلسل في العلل تقتضي انتهاء الممكنات إلى واجب الوجود لذاته، وهذا التقسيم بدهي ولكنّه يحتاج إلى تنبيه. [انظر: المصدر السابق، المقالة الأولى]

و- قاعدة استحالة اجتماع النقيضين

يستحيل أن يجتمع في الواقع وجود الشيء وعدمه، فلا يمكن أن يكون الشيء بما هو شيء موجودًا ومعدومًا في الوقت نفسه.

والطفل يدرك هذه المسألة، فهو يفرّق بين الوجود والعدم، فحينما يشرب الحليب من أمّه يعرف أنّه موجود فيتغذّى ويسكت، وحينما لا توجد امّه فهو يبكي لكونه يعرف الفرق بين الوجود والعدم، فعنده إدراك بأنّ الحليب إمّا أن يكون موجودًا فيتغذّى ويسكت، أو معدومًا فيبكي ويصرخ لحين مجيء والدته.

ولا يمكن أن يكون الحليب موجودًا ومعدومًا له في الوقت نفسه، وهذه أيضًا مسألة بدهية فطرية تحتاج في بعض الأحيان إلى تنبيه عليها.

ثانيًا: نقد القراءة الفلسفية الإلحادية لنظرية الانفجار العظيم

بعد بيان المقدّمات أعلاه والتوضيح الذي تقدّم به أصحاب الانفجار العظيم، والمؤيّدات التي ذُكرت في المقام؛ لا بدّ لنا من وضع هذه النظرية في الميزان الخاصّ الذي سار على وفقه أصحابها، وبعد ذلك سنرى أتثبت هذه النظرية وجود الخالق أم تنفيه.

أ- لا تداخل بين العلوم

لكلّ علم موضوعه الخاصّ به، فعلم الطبّ مثلًا يبحث في جسم الإنسان بلحاظ الصحّة والمرض، وعلم الأحياء يبحث في حياة الكائنات، وعلم الكون الفيزيائي يبحث في كيفية تكوّن الكون، وعلم النحو يبحث في الكلمة بلحاظ إعرابها وبنائها، وتصانيف العلوم مهمّة وعلى أساسها يحافَظ على الموضوع ويُمنع من تداخل العلوم مع بعضها.

فحينما يبحث علمٌ ما في موضوعٍ خارجٍ عنه، يعدّ ذلك في الوسط العلمي "زلّةً علميةً" وأمرًا غير مقبول، فموضوع علم الكون الفيزيائي تفسير نشأة الكون، وفيه تُفترض نظريات أو افتراضات تطبّق على ما لدينا من معطيات، وكلّ ذلك لا بأس به على نحو الفرضية ما لم يأتِ بدليل تجريبي واضح على مدّعاه يؤيد نظريته تلك. أمّا حينما يتعرّض بعضُ ممّن ينسبون أنفسهم إلى هذا العلم إلى مسألة الوجود وتفاصيله وتكوّنه، وأنّ الوجود صدفة، وأنّه لا يحتاج هذا النظام إلى خالق، وهو موضوع علم الفلسفة، فهذا يعدّ زلّةً علميةً وأمرًا غير مقبول معرفيًّا.

وهـذه الزلّـة العلميـة قـد وقـع فيهـا هوكنـج ، فنجـده يحـاول عـزل دور الفلاسـفة في الإجابـة عـن السـؤال المهـمّ حـول كيفيـة نشـأة الكـون، وتصـدّى لهـا هـو بوصفـه عالـم الفيزيـاء، ويقـول في كتابـه "التصميـم العظيـم": «يوجـد لـكلٍّ منّـا لفـترة وجـيزة، نستكشـف خلالهـا جـزءًا ضئيـلًا مـن الكـون وحسـب، لكنّنـا كبـشر كائنـات فضوليـة، نحـن نتسـاءل ونفتّـش عـن الأجوبـة، نحيـا في هـذا الكـون الهائـل الذى يعـدّ بـدوره رحيمًـا وقاسـيًا في الوقـت نفسـه، ونحـدّق لـلأعلى باتّجـاه السـماوات الشاسـعة، وعادةً مـا يسـأل النـاس عـددًا مـن الأسـئلة: كيـف يمكننـا فهـم العالـم الذي وجدنـا أنفسـنا فيـه؟ كيـف يتـصرّف الكـون؟ مـا حقيقـة الواقـع؟ مـن أيـن أتى كلّ ذلـك؟ هـل الكـون كان بحاجـة لخالـق؟ معظمنـا يمـضي وقتـه في قلـق بشـأن تلـك الأسـئلة، لكنّنـا جميعًـا قلقـون بشـأنها بعـض الوقـت» [هوكينـج، التصميـم العظيـم، ص 13].

كمـا وأنّـه يناقـض نفسـه ويؤكـد أنّ بعـض الأسـئلة خارجـة عـن الفيزيـاء، وتتولّاهـا الفلسـفة! يقـول: «ولكـنّ العلـم لا يمكنـه أن يتنبّـأ بالطريقـة الـتي "ينبـغي" أن يبـدأ بهـا الكـون؛ فالتنبّـؤ بذلـك يسـتدعي اللجـوء إلى الميتافيزيقـا». ثـمّ عاد ليقـول: «على أنّـني أعتقـد الآن أنّـه رغـم أنّ المفردة موجـودة، إلّا أنّ قوانـين الفيزيـاء مـا زالـت تسـتطيع تحديـد طريقـة بـدء الكـون» [هوكينـج، الثقـوب السـوداء، ص 132 و133].

إنّ العلمـاء الذيـن يبحثـون عـن كيفيـة تكـوّن العالـم، والذيـن تعرّضـوا لمسـألة الانفجـار العظيـم ـ مـع الاحـترام لتخصصهـم وعلمهـم ـ يجـب عليهـم أن يلتزمـوا بموضـوع علمهـم، ويبيّنـوا النتائـج الـتي حصلـوا عليهـا، وأن لا يتطرّقـوا إلى اسـتنتاجات خارجـة عـن موضـوع علمهـم، بـل يسـلّموا مـا حصلـوا عليـه إلى علـم آخـر هـو الذي يبحـث عـن تلـك المسـألة.

أمّـا الأسـئلة الأخـرى مثـل: مـن أيـن جـاءت تلـك النقطـة؟ ومـاذا كان قبلهـا؟ فهـذا ليـس مـن تخصّـص علـم الفيزيـاء، وكذلـك بعـض النظريـات العلميـة كنظريـة الانفجـار العظيـم، ونظريـة التطـوّر، ونظريـة الذرّة، ونظريـة الجاذبيـة، وغيرهـا مـن النظريـات العلميـة، هي نظريـات محايـدة، لا علاقـة لهـا بإلحـاد أو إيمـان، بـل المفـروض أنّهـا تقـوم على جمـع الأدلّـة ودراسـتها ومقاطعتهـا.

لذلـك يعـاب عليهـم ذلـك، يقـول محمـد عابـد الجابـري: «مـن هنـا يتّضـح لنـا لمـاذا يعـارض الوضعيـون الجـدد النظريـات التفسـيرية، ويحـصرون وظيفـة النظريـة الفيزيائيـة في دمـج القوانـين الطبيعيـة بعضهـا مـع بعـض، وإرجائهـا إلى أقـلّ عـدد ممكـن مـن العبـارات الرياضيـة البسـيطة والواضحـة؛ ذلـك لأنّ المعرفـة العلميـة معرفـة تجريبيـة، ليسـت ضروريـةً، ولا يقينيـةً؛ لأنّ

أساسها هو الاستقراء، والاستقراء يعطينا احتمالاتٍ وترجيحاتٍ، لا معارف يقينيةً؛ ولذلك كان العلم يصف ولا يفسّر» [الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم.. العقلانية المعاصرة وتطوّر الفكر العلمي، ص 306].

بينما نلاحظ أنّ ما فعله الملاحدة هو استغلال جهل الأغلب بهذه الأمور وتسليم البسطاء من الناس لهم واحترام علومهم من قبل العامّة، فوظّفوا المعطيات الظنّية التي توهّموها وجعلوها على شكل قضايا ونظريات بناءً على مدّعيات نفسية، بينما هم لم يلتزموا بضوابط العلم فهذا ليس من العلم في شيء، يقول هانز رايخنباخ (Hans Reichenbach): «إنّ نظرية الاحتمالات قد أدّت إلى إحداث تحوّل عميق في تفسير القضايا العلمية. إنّ القضّية التي تتعلّق بحادثة يحتمل حدوثها لا يمكن تأكيدها لقضيّة حقيقية، ومع ذلك فنحن نأخذ في الاعتبار مثل هذه الحقيقة عندما يتعلّق الأمر بمشاغلنا في المستقبل، وهذا راجع إلى أنّنا مضطرّون للعمل، وأنّنا لا نستطيع انتظار الحادثة حتّى تحدث، بل إنّنا أنفسنا ملزمون باتّخاذ قرار بشأنها قبل حدوثها، وبالتالي سيكون علينا أن نبني تصرّفاتنا على هذه القضيّة المحتملة» [المصدر السابق، ص 307].

فعدم الالتزام بموضوعية العلم وتخصّصه يؤدّي إلى الفوضى وفي أفضل الحالات إلى عدم الدقّة العلمية المبتغاة من العلماء، يقول هيرمان فايل (Hermann Weyl)[7]: «على الرغم من أنّ الأنظمة الفلسفية مختلفة فيما بينها، لكنّنا لا نستطيع طرحها جانبًا، إلّا إذا حوّلنا علمنا إلى هرج ومرج لا معنى له» [Weyl, Philosophy of Mathematics and Natural Science, p. 10].

ومثله ما قاله هايزنبيرغ (Heisenberg) الحائز على جائزة نوبل للعلوم عام 1932: «أعتقد بأنّ بعض التغيّرات الخاطئة في نظرية الذرّات ـ ومع الأسف توجد مثل هذه التغيرات بالفعل ـ ناشئة عن خطإ بعض الفيزيائيين في تصوّرهم إمكانية تجنّب الاستدلالات الفلسفية بشكلٍ تامٍّ. وهؤلاء انطلقوا من فلسفة ضعيفة ليطرحوا أسئلةً خاطئةً، وبقليل من المبالغة يمكن القول إنّ الفيزياء الجيّدة ضُيّعت أحيانًا بسبب فلسفة سيّئة».

[See: Heisenberg, Physics and Philosophy: The Revolution in Modern Science]

يقول أنطوني فلو (Antony Flew)[8] (شيخ الملحدين الذي ترك إلحاده): «عندما ندرس بناء الذرّة من جسيمات تحت ذرّية (إلكترونات وبروتونات ونيوترونات وكواركات) فنحن

7- رياضي وفيزيائي ألماني، برز في النصف الأوّل من القرن العشرين وتوفّي عام 1955.

8- أنطوني فلو (1923 - 2010) فيلسوف بريطاني بارز في فلسفة الدين، عُرف لعقود بوصفه أحد أهمّ منظّري الإلحاد في القرن العشرين قبل أن يعلن تحوّله إلى الإيمان بوجود إله في سنواته الأخيرة. مثّلت مسيرته الفكرية مثالًا مؤثّرًا على التحوّل الفلسفي من الشكّ إلى الإقرار بالعقلانية الإيمانية.

نتحدّث في العلم. أمّا عندما نسأل كيف نشأت هذه الجسيمات من عدم، ولماذا؟ فنحن نتحدّث في الفلسفة ... فالفيلسوف هو الذي يخرج من المعلومات العلمية باستنتاجات معرفية. وربّما لا يعرف الكثيرون من البيولوجيين عن هذه الاستنتاجات أكثر ممّا يعرف بائع الآيس كريم عن القواعد التي تحكم البورصة وقوانين السوق الحرّة.

أنا لا أعترض على أن يخوض العلماء في الفلسفة، لكن عليهم أن يحصّلوا الخلفية الفلسفية المناسبة. وعلى كلٍّ، فإنّ العلماء فلاسفة ضعاف، كما يقول أينشتاين. ولحسن الحظّ فإنّ علماء القرن العشرين البارزين قد توصّلوا إلى استنتاج فلسفي معرفي هائل، يفسّر العديد من الظواهر الطبيعية المحيطة بنا، وهو أنّ هذا الكون بما فيه من حياة لا يُنشئه إلّا مصمّمٌ ذكيٌّ» [شريف، رحلة عقل، ص 76].

ب- التفريق بين النظرية والفرضية

إذا أردنا تمحيص المعلومات والنظريات، فلا بدّ من وجود معيار وميزان نحكم على أساسه بصحّة نظريةٍ ما أو خطئها، وهذا المعيار لا بدّ أن يكون عامًّا ومطلقًا، وليس نسبيًّا خاصًّا، فواضح عندنا أنّه إذا اردنا أن نشتري مثقالًا من الذهب في أيّ بلدٍ، فالمثقال هو نفسه من ناحية الوزن، وكذا سائر وحدات قياس الوزن، فهي ليست خاصّةً ببائعٍ ما في السوق الفلاني، فلو كانت كذلك، لوجب حصول المجهولية لبقيّة الأفراد.

كذلك بالنسبة للنظريات والفرضيات التي يطرحها العلماء، محاولين تفسير ظاهرةٍ ما وحالةٍ ما، فلا بدّ لهذا التفسير أن لا يتعارض مع أحد القوانين الفطرية العامّة الموجودة في الذهن البشري، ولا القوانين الفيزيائية الواقعية التي اكتشفت من قبل علماء الطبيعة والتي تحكم عالم الطبيعة (كالجاذبية، وردّ الفعل، و...).

فلا يمكن للعلماء استخدام مصطلحي "الفرضية" و"النظرية" بمفهومين ولحاظين في العلم نفسه، أي بمكيالين مختلفين، بل لا بدّ أن يتّفقوا على الانفجار العظيم أهو نظرية أم فرضية، مع الأخذ بنظر الاعتبار الضوابط الخاصّة بكلّ نوع.

إنّ العلماء متّفقون على أنّ المسألة العلمية قبل أن تدخل في نطاق النظرية لا بدّ من اندراجها ضمن الفرضية. إنّ الفرق بين الفرضية والنظرية ليس فرقًا في الدرجة فحسب،

بل هو فرق وظيفي - إبستمولوجي في جوهره. فالفرضية اقتراح تفسيري مفرد قابل للاختبار التجريبي، يُصاغ للإجابة عن سؤال محدّد ضمن أُفق معرفي قائم. أمّا النظرية فبنية نسقية متكاملة من قوانين ونماذج وفرضيات مترابطة، تمتلك قوّةً تفسيريةً وتنبّؤيةً شاملةً لمجالٍ ظاهراتي واسع. والفرضية لا تتحوّل إلى نظرية بمجرّد "إثباتها" تجريبيًّا؛ إذ لا إثبات نهائيًّا في العلم التجريبي، بل تتحوّل بانخراطها في شبكة تفسيرية مترابطة تتلقّى تأييدًا تجريبيًّا واسعًا من مصادر مستقلّة، وتولّد برنامج بحث مثمرًا يتنبّأ بظواهر جديدة. وأصل الإشكال هنا، فكيف أمكن انتقال هذه المسألة العلمية إلى نظرية من دون دخولها مرحلة التنقيح كما هو المتّفق بين العلماء؟ وهل مجرّد وجود بعض الآثار والعلامات كافٍ في انتقالها أم لا؟ فهذا أوّل الكلام.

ومن ثمّ نجد أنّ نظرية الانفجار العظيم رغم شيوع تسميتها هي في حقيقتها "فرضية علمية" أكثر من كونها نظريةً؛ وذلك لسببين: الأوّل أنّها غير قابلة للتجربة المباشرة أو الملاحظة المكرّرة؛ إذ لا يمكننا إعادة خلق نشأة الكون في المختبر. الثاني أنّها تعتمد على استقراء رياضي للماضي السحيق بناءً على ملاحظات حالية (كتمدّد المجرّات والإشعاع الخلفي)، وليس على اختبار عملي متكرّر.

لذلك بدأ دوكينز يتخبّط عندما انتقلت هذه الفرضية من حيّز الافتراض إلى موضع النظرية العملية. ويتجلّى ذلك في حديثه عن تعدّد الأكوان خلال لقائه بالفيزيائي الملحد المعروف ستيفن واينبرج؛ إذ طرح دوكينز هذه الفكرة بوصفها مخرجًا علميًّا وبديلًا عن نظرية المصمّم الذكيّ التي يتبنّاها المؤمنون، غير أنّ واينبرج فاجأه بردٍّ صادمٍ هزّ قناعته الوهمية وقال: «إنّه لأمر مزعج بالفعل ... لا أظنّ أنّ على أحدنا أن يستهين بالورطة التي نحن فيها، وإنّنا في النهاية لن نستطيع أن نفسّر العالم ... وسيبقى دائمًا سؤال: لماذا قوانين الطبيعة كما هي الآن، وليست مختلفةً، ولا أجد أيّ طريقة للخروج من هذا في نظرية حقيقية، فنظرية تعدّد الأكوان ليست فقط بتخمين؛ لأنّ النظرية ستكون تخمينًا، ولكن لا يوجد لدينا نظرية نستطيع أن نضع بها التخمين في قوانين رياضية ... ولكنّها احتمالية» [انظر: اليوتيوب، لقاء بين ستيفن وينبرج وهو يحرج دوكينز بخصوص تفسيراته غير المنطقية].

جـ ـ الحجم صفر والكثافة غير متناهية!

إنّ هـذه الفرضيـة تبتـني على شيء مبهـم لـم يتـمّ تفسـيره، وهـو وجـود النقطـة المنفـردة في الانفجـار العظيـم، والطاقـة الـتي حصلـت عليهـا المؤدّيـة إلى هـذا الانفجـار، فـلا العلـم قـادر على بيـان كيفيـة وجودهـا ومـن الذي أوجدهـا وفي أيّ وقـت وجـدت، فكيـف يمكـن لنقطـة لا تمتلـك حجمًـا وتمتلـك كثافـةً غـير متناهيـة؟! لذلـك حـتّى دوكـنزيشـير إلى عـدم وجـود جـواب لمثـل هـذه الأسـئلة، فيقـول لا تسـأل عمّـا قبـل الانفجـار، فـلا يمكـن أن يفـسّر كيفيـة وجـود نقطـة مفـردة وكثافتهـا غـير متناهيـة، ويقـول أيضًـا إنّـه قبـل الانفجـار لا يوجـد زمـان؛ لأنّ الزمـان فـرع المـادّة ولا مـادّة هنـاك، فالأمـر هـذا قائـم على إبهـام وسـببه هـو مـا ذكرنـاه آنفًـا؛ لأنّـه دخـل في علـم خـارج عـن تخصّصـه.

فأصـل تفسـيرهم هـذا غـير مقبـول علميًّـا، كمـا هـو واضـح عنـد أصحـاب التخصّـص مـن الفيزيائيـين والفلاسـفة.

يقـول هوكينـج: «كان حجـم الكـون صفـرًا؛ لذلـك يجـب أن يكـون سـاخنًا بشـكل لا نهـائي، لكـن مـع توسّـع الكـون تنخفـض درجـة حـرارة الإشـعاع، فبعـد ثانيـة واحـدة مـن الانفجـار العظيـم انخفضـت درجـة الحـرارة إلى حـوالي عـشرة آلاف مليـون درجـة ... ومـع اسـتمرار تمـدّد الكـون وانخفـاض درجـة الحـرارة، فـإنّ معـدّل إنتـاج الإلكترونـات ومضادّاتهـا مـن خـلال التصادمـات سـيقلّ عـن المعـدّل الذى سـيتمّ تدميرهمـا بـه؛ ولذلـك فـإنّ معظـم الإلكترونـات ومضادّاتهـا سـيتمّ لإنتـاج المزيـد مـن الفوتونـات، وتـترك عـدد قليـل مـن الإلكترونـات وراءهمـا» [هوكينـج، تاريـخ موجـز للزمـان، ص 106].

دـ عدم انحصار تفسير الكون بالانفجار العظيم

لا يمكـن الادّعاء بـأنّ الانفجـار العظيـم هي الفرضيـة الوحيـدة الـتي تفـسّر الكـون، بـل توجـد فرضيـات أخـرى، بعضهـا تتعـارض مع الانفجـار العظيـم، كالتي تـدّعي بـأنّ الكـون سـاكن ولا يتمدّد.

إنّ العلمـاء أنفسـهم منقسـمون حـول نظريـة الانفجـار الكبير، بوصفهـا نظريـةً وحيـدةً لتفسـير نشـأة الكـون، وإنّ الكـون لـم يصـل قـطّ لحالـة الكثافـة اللامتناهيـة كمـا يـدّعي أنصـار الانفجـار العظيـم، وإنّمـا حدثـت حالـة مـن الانكمـاش والتباعـد دون حـدوث اصطـدام نتـج منـه انفجـار، إذن فنحـن أمـام أكـثر مـن نظريـة علميـة تفـسّر نشـأة الكـون مثـل نمـاذج الكـون الأبـدي (Eternal Universe Models)، ونمـاذج الأكـوان الدوريـة (Cyclic Cosmologies)، ونمـوذج فرضيـة

غامو (Gamow's Oscillating Universe)، ومعنى وجود أكثر من نظرية تفسّر ظاهرةً واحدةً أنّ هذه النظرية أو غيرها لا تملك الدليل القاطع على صحّة موقفها، فانحياز أصحاب هذه النظرية إليها ما هو إلّا لغاية نفسية وحكم مسبق اعتمدوا عليه، فهو ترجيح غير علمي، بل لوضع نفسي.

هـ ـ الانفجار يفسّر الكيفية لا السببية

لا توجد مانعية من نظرية الانفجار العظيم بناءً على الرؤية الإلهية الصحيحة للأديان، فالموحّدون ليس لديهم مشكلة مع النظرية في حدّ ذاتها، بشرط أن تبقى في إطارها التفسيري الصحيح، وإنّما ما يستفزّهم حقًّا هو محاولة الاستفادة من الأمور التكوينية كالانفجار العظيم لإثبات أمور موهومة وغير صحيحة، بالاعتماد على سذاجة المتلقّي أو العناوين الصاخبة أو إعطاء النظرية صلاحية إثبات دعوى لا تمتّ إليها بصلة، دون أدلّة أو براهين واقعية، فالإشكالية تكمن في توظيف النظرية خارج سياقها. نعم، إذا ثبت علميًّا حدوث الانفجار العظيم فإنّه يمكن أن يفسر كيفية نشوء الكون والتطوّر التدريجي فيه، لكنّه لا يفسّر أصل وجود الكون ولا سبب وجوده، فالاعتراض ليس على أصل الانفجار، بل على الوسائل غير العلمية المستخدمة في محاولة جرّ هذه النظرية لإثبات مدّعًى واهٍ.

والقوانين الفيزيائية لا ترجّح عدم وجود إله، ويؤيّد جون ليسلي (John Leslie)[9] ذلك ويقول: «إنّ المفاهيم الفيزيائية كلّها ـ سواء السائدة الآن أو السائدة وقت الانفجار الكوني الأعظم ـ لا تتعارض مع القول بإله خلق الكون من عدم» [عمرو شريف، رحلة عقل، ص 80].

إنّ الانفجار وغيره من النظريات أو الفرضيات يحاول البعض ممّن هم خارج تخصّص البحث الفلسفي أن يحرفوا مسارها لإثبات ما أملاه عليهم معتقدهم الفكري، رغم أنّ العقل الفطري الباحث عن الأسباب لا يقبل بذلك. فيمكننا القول إنّ العلماء اكتشفوا القوانين التي أوجدها الخالق، سواء تجسّدت في نظرية التطوّر أو الانفجار العظيم، ومن باب الاستغراب نطرح سؤالًا: ألا يمكن للخالق أن يستخدم بعض الأمور التي اكتشفها العلماء؟ لماذا يدّعي بعضهم أنّ هذه الأمور التي اكتشفناها إنّما تعبّر عن اختراعنا له، فإنّ اكتشاف شيء ليس معناه إيجاده، فثمّة فرق بين الأمرين.

9- جون أندرو ليسلي (Leslie Andrew John) هو فيلسوف كندي بارز معاصر، وُلد في 2 آب 1940. يعدّ من أبرز المفكّرين في فلسفة الكون وفلسفة الدين، ويتميّز بفلسفته الفريدة التي لا تندرج ضمن التصنيفات التقليدية كالإلحاد أو الإيمان الديني النمطي.

لذا نجد فرانسيس كولنز (Francis Collins)[10] يقول مستغربًا: «من الذي يحجر على الإله أن يستعمل آلية التطوّر في الخلق، فالتطوّر آلية يستعملها الإله تمامًا كما يستعمل آلية الخلق الخاصّ» [عمرو شريف، وهم الإلحاد، ص85].

فلو تنازلنا وقبلنا فرضية الانفجار العظيم بوصفه حقيقةً علميةً، فإنّ مؤدّاها يقتصر على تفسير كيفية تكوّن الكون بقطع النظر عن وجود خالق له من عدمه، فهي لا تتطرّق إلى نفي الخالق بتاتًا، بل تشرح الكيفية فقط، وأمّا الأسئلة الجوهرية: من أين أتى الكون؟ ومن الذي أوجده؟ وهل الصدفة هي التي أوجدته؟ فهذه الأسئلة خارج حدود هذه النظرية ويستحيل أن تتعلّق بها.

فحين نفسّر حياة بعض الحيوانات وكيفية حركتها وبعض ردود أفعالها، فإنّنا نجيب عن السؤال القائل: كيف يتحرّك هذا الحيوان؟

وأمّا السؤال الأهمّ الذي يحاول الملاحدة تعتيم الحقيقة وتغييمها حوله، فهو: من الذي أوجد هذا الحيوان؟

وهذا ما لا يمكن لهذه الفرضية أن تجيب عنه. إذن هناك بداية لكوننا وبداية لوجود المكان والزمان والمادّة، لقد كانت نقطة البداية لكلّ شيء، ولكنّ السؤال عن الذي أوجد هذه البداية يبقى خارج نطاق التفسير التجريبي البحت، وداخل مجال البحث الفلسفي والعقلي.

و- هل العلم يعتقد بالصدفة وعدم السببية؟

يتفاعل العقلاء بسخرية مع فكرة وقوع حوادث بلا سبب؛ لأنّ منهجهم يقوم على رفض وجود أشياء دون مسبّب، لكنّ المفارقة أنّ البعض نفسه يقبل فكرة أنّ الكون والحياة المعقّدين جاءا بالصدفة! هذا التناقض يكشف أنّ غايتهم ليست كشف الحقيقة، بل تأكيد معتقد مسبق عن طريق ليّ عنق الأدلّة!

ولو تأمّلنا قليلًا، وطرحنا بعض الأسئلة الفطرية الأساسية: هل يُعقَل أن يكون هذا الكون الذكيّ والحيّ، بما يحويه من قوانين فيزيائية دقيقة ومحكمة مثل الجاذبية،

10- فرانسيس سيلرز كولنز (Francis Sellers Collins) هو عالم وراثة وطبيب أمريكي بارز، اشتهر بقيادته مشروع الجينوم البشري وتولّيه إدارة المعاهد الوطنية للصحّة في الولايات المتّحدة. عُرف بدوره في تطوير أبحاث الجينات المرتبطة بالأمراض الوراثية، وبمساهمته خلال جائحة كوفيد-19 في توجيه السياسات العلمية والصحّية الوطنية.

والكهرومغناطيسية، وسرعة الضوء، قد نشأ بمحض الصدفة؟ أم أنّ تلك القوانين كانت سابقةً على تكوّن الكون، وهي ذاتها التي أوجدته وشكّلته؟

الجواب العلمي والعقلائي الذي يرتضيه العلماء أنفسهم أنّ هذا محال؛ لأنّه لم يكن شيء موجودًا حتّى توجد القوانين الفيزيائية الدقيقة.

أمّا من تبنّى الصدفة المحضة يدّعي أنّ نقطة البداية في نشأة الكون هي التي أنتجت أيضًا قوانين فيزيائية! وهذا لا يستطيع العلم الإقرار به أو إثباته.

ز ـ النقطة المفردة (singularity)

نتساءل عن النقطة المفردة: هل يعتقدون بأنّها هي التي أوجدت نفسها، أم كانت حادثةً؟

فإذا لم يسلّموا بأنّها حادثة، فهل عدم تسليمهم هذا اعتقاد بوجود شيء وجوده من ذاته؟ فهذا اعتقاد ضمني بوجود خالق للكون، ولكن فسّروه تفسيرًا مادّيًّا.

وإن قالوا بأنّها حادثة نسأل بعض الأسئلة المهمّة، وهي: كيف وجدت؟ ومن الذي أوجدها؟ ولماذا وجدت في هذا الوقت؟ وهل المكان الذي كانت فيه كان موجودًا قبلها؟ ومن الذي أوجده؟ إلى غير ذلك من الأسئلة المتعلّقة بالتفسير.

ولكون الأمر من الأمور الواضحة نلاحظ أنّ بعضهم قد توقّف عند هذا التناقض، فقد أقرّ هينز باجلز (Heinz Pagels) بالتناقض بقوله: «العدم قبل خلق الكون هو الفراغ الأتمّ الذي بإمكاننا تصوّره، لا وجود لمكان ولا زمان ولا مادّة، إنّه عالمٌ دون موضعٍ من غير مدّة ولا أزل ولا عدد، إنّه ما يسمّيه علماء الرياضيات بـ"المجموعة الفارغة"، ومع ذلك فهذا الفراغ غير المتصوّر يحوّل نفسه إلى وجودٍ تامٍّ نتيجةً حتميةً للقوانين الفيزيائية، أين كتبت هذه القوانين في ذلك الفراغ؟ ما الذي قال للفراغ إنّه حاملٌ بكونٍ ممكنٍ؟ يبدو أنّه حتّى هذا الفراغ خاضعٌ للقانون» [Heinz Pagels, Perfect Symmetry: The Search for the Beginning of Time, p. 347].

فهو يتعجّب ويشير إلى مسألة غير مقبولة لا علميًّا ولا منطقيًّا وهي أنّ العدم يولّد الوجود!

حـ ـ ردود أفعال نفسية

لا يعني عدم إيماني بدينٍ ما؛ بسبب تناقض سلوك أتباعه مع الفطرة والعقل، إنكار

كامل أسسه. فمن دوافع الإلحاد النفسية أنّ بعض المنتسبين للدين، إمّا استغلالًا أو جهلًا أو نفعية، شوّهوا صورة الخالق والدين، وذلك عبر تقديم مصالحهم الشخصية على العامّة، وهذا قد يؤدّي بهم إلى التنازل عن بعض الأسس البنائية للدين من أجل المنفعة الخاصّة، وهذا يشوّه الدين ويجعله إلى حدٍّ ما قيل أفيون الشعوب، وما صكوك الغفران وبعض التصرّفات المشينة التي يتصرّف بها بعض المسترزقين من المنتسبين إلى الأديان إلّا مثال بسيط واضح عن التشويهات الخطيرة للدين، فهم بدورهم هذا يكونون قطّاع طرق أمام وصول الناس إلى الخالق الرحيم.

والمشكلة في أكثر البسطاء من الناس أنّهم يربطون بين كلّ من يدّعي التديّن بالله تعالى، فيعتقدون أنّه هو ممثّل الإله في الأرض، فحينما يرون رجال دين كهؤلاء، يتصوّرون الخالق والدين بصورة مشوّهة، فيفرّون من الدين ويحاولون أنّ يرفعوا التناقض الحاصل عندهم من الحكمة في الموجودات والمخلوقات وبين خالق فيه صفات غير متّزنة، فتراهم لا يرغبون نفسيًّا بأن يعتقدوا بتسلّط خالق يحبّ الشرّ، ويحرق بالنار و... ويحاولون إقامة أدلّة على نفيه أو ينقضون أدلّة الموحّدين.

فيحصل نوع من التجاذب بين العلماء وبين بعض من يدّعي انتسابه إلى الدين، وهذا يؤثّر سلبًا على المجتمع وعلى المعارف ممّا أدّى بعض المتديّنيين من حيث يعلم أو لا يعلم أن يفرّ من العلم والتطوّر، يقول توماس جيفرسون (Thomas Jefferson)[11]: «رجال الدين من مختلف الطوائف يعانون من تقدّم العلم، كما يعاني السحرة من موعد طلوع الشمس» [جيفرسون، مجموعات رسائل جيفرسون، رسالة إلى خوسيه فرانسيسكو كوريا دي سيرا في 11 أبريل 1820].

وهذا لا يشمل جميع رجال الدين؛ بل هو خاصٌّ كما أشرنا بمن لديه أرضية سلبية عن العلم والتقنية بكونه تهدف إلى الإلحاد.

ط ـ ما ضرر وجود الخالق (رهان باسكال)[12]؟!

ينسب هذا الرهان إلى عالم الرياضيات الفرنسي الكبير بليز باسكال (Blaise Pascal)،

11- توماس جيفرسون (Jefferson Thomas) (1743–1826) كان أحد الآباء المؤسّسين للولايات المتّحدة، وكاتب إعلان الاستقلال عام 1776، والرئيس الثالث للبلاد (1801–1809). ترك إرثًا فكريًّا وسياسيًّا عميقًا يجسّد مبادئ الحرّية، والمساواة، وفصل الدين عن الدولة، وساهم في رسم معالم الديمقراطية الأمريكية المبكّرة.

12- عالم فرنسي اهتمّ بالرياضيات والفلسفة والفيزياء، وقد أورد رهانه هذا في كتابه "الخواطر".

فإنّه مهما قلّت الدلائل على وجود الإله، فإنّ العقوبة التي تنتظر الاختيار الخاطئ هي أكبر، فأحكم الطرق هي الإيمان بالإله؛ لأنّك إن كنت مصيبًا فستربح النعمة الكبرى، ولو كنت مخطئًا فلن يكون هناك فرق، بينما إن لم تؤمن بالإله، وكنت مخطئًا، فأنت محكوم باللعنة الأبدية، ولو كنت مصيبًا، فلن يكون هناك أيّ فرق، وعلى ذلك فالقرار لا يحتاج إلى ذكاء، وعليك الإيمان بالإله[13].

وهذه الحجّة الفلسفية التي أشار لها الإمام الرضا عليه السلام قبل باسكال بقرون حينما قالها لأحد الزنادقة: «أرأيت إن كان القول قولكم وليس كما تقولون ألسنا وإيّاكم شرعًا سواءً، ولا يضرّنا ما صلّينا وصمنا وزكّينا وأقررنا؟ وإن يكن القول قولنا وهو كما نقول ألستم قد هلكتم ونجونا؟» [الكليني، الكافي، ج 1، ص 78 - 80؛ المفضّل بن عمر، توحيد المفضّل، ص 250 - 252؛ الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج 1، ص 131 و132، الباب 11، ح 28؛ الطبرسي، الاحتجاج، ج 2، ص 354 - 356].

قال أبو العلاء المعرّي[14]:

قالَ المُنَجِّمُ وَالطَبيبُ كِلاهُما لا تُحشَرُ الأَجسادُ قُلتُ إِلَيكُما

إِن صَحَّ قَولُكُما فَلَستُ بِخاسِرٍ أَو صَحَّ قَولي فَالخَسارُ عَلَيكُما

فلا بدّ أن تكون غاية العلماء معرفة الحقيقة، لا جلب الحجّة لما يؤمنون به.

وخصوصًا أنّ القوانين الفيزيائية لا تتعارض ولا تتبنّى عدم وجود خالق؛ لذلك يقول الفيلسوف جون ليسلي (John Leslie): «إنّ المفاهيم الفيزيائية كلّها، سواء السائدة الآن أو السائدة وقت الانفجار الكوني الأعظم، لا تتعارض مع القول بإلهٍ خلق الكون من العدم» [عمرو شريف، رحلة عقل، ص 82].

لذا يقول ستيفن هوكنج مضطّرًا: «إذا كانت هناك معادلات تشير إلى احتمالية نشأة شيء من لا شيء، فستظلّ هذه المعادلات دائمًا في حاجةٍ إلى من ينفخ فيها القدرة على الفعل. فالمعادلات لا تخلق، لكنّها تصف الفعل ... إنّ توصّلنا لمعادلاتٍ تشرح كيف بدأ العالم، لا يعني أنّ الإله غير موجودٍ، لكن يعني أنّه لم يخلق الكون عشوائيًّا، ولكنه خلقه تبعًا لقوانين» [المصدر السابق].

13- هذا القول لم يذكره باسكال في كتابٍ مستقلٍّ، بل ورد في مجموعة ملاحظات وأفكار كتبها باسكال سمّيت بـ (Pensées)، ونشرت بعد وفاته سنة 1670 م.

14- ورد هذا الشعر في اللزوميات، أو لزوم ما لا يلزم، هو ديوان شعري للفيلسوف والشاعر العربي أبي العلاء المعرّي، يُعدّ من أبرز أعماله الشعرية وأكثرها تعبيرًا عن نزوعه العقلي والزهدي. يتكوّن من أكثر من أحد عشر ألف بيت نظمه خلال عزلته في معرّة النعمان، ويعدّ من قمم الشعر الفلسفي في التراث العربي.

ي- إغفال الأسس العقلية والمنطقية أو التغافل عنها

حينما نقرأ ما كتبه بعض الملاحدة ونستمع إلى جدلهم حول الكون، نجد هناك بعض المشاكل في أساسهم والمبادئ التي ابتنت عليها نظريتهم، والمفروض أنّ الأسس العقلية الموجودة في الفطرة الإنسانية تقضي بوجود تفسير لكيفية حدوث هذا الكون، ونتيجةً للتحليل العقلي والبراهين وصل الموحّدون إلى وجود خالق ضمن صفات معيّنة، ولكنّ هذه النتائج لم تتّفق مع غايات الملحدين؛ لذلك نجدهم يصوّرون الموحّدين بعدم العقلانية كونهم قد خلقوا إلهًا خارقًا للطبيعة، وحينما تصل النوبة إلى أوهامهم فنجدهم متضادّين ومتناقضين في منهجهم المعرفي، فيؤمنون بالمعجزات بدون أيّ مُسبّب منطقي لها (كما في قولهم في صدور العالم من النقطة المفردة وتطوّر الخليّة لتصبح كائنًا حيًّا ذكيًّا)، ويستنكرون على وجود الأسباب بواسطة علّتها الأصلية، وفيما يلي بعض النماذج التي من خلالها تتّضح هذه المتضادّات المعرفية والتناقضات العلمية.

1- عدم الحاجة إلى علّة

وهذا من الأمور الغريبة جدًّا؛ فهم يعتمدون على السبب والمسبّب في معرفة الحقائق العلمية ويستنكرونها في أصل وجود الكون! حتّى أنّ ديفيد هيوم (David Hume) الذي يعدّ أحد أكثر الفلاسفة المشكّكين تعنّتًا، يرى أنّ هذا الموقف مثير للسخرية، وفي مجمل الشكوك التي قدّمها لم يلغ هيوم المسبّب أو وجود العلّة قطّ. وقد كتب هيوم في عام1754: «لم أتّفق ولا مرّة مع الاقتراح القائل بأنّ من الممكن أن ينشأ شيء دون مسبّب له» [Greid, The Letters of David Hume, p 187].

2- نشأة الكون من لا شيء

إنّ الانفجار العظيم لا يبيّن ماذا كان قبل النقطة المنفردة؛ لذلك حاول بعضهم إيجاد تخريجات حول ما كان قبل الانفجار، فنجد بول دافيس[15] (Paul Davies) يقارن قوانين الفيزياء بسحر كوني، بمعنى أنّ القوانين نفسها قادرة على توليد كون كامل بدون الحاجة لسبب خارجي مباشر، حيث قال مشيرًا إلى قوّة النظام الطبيعي والقوانين الثابتة: «ومع

15- بول دافيس (Paul Davies) هو عالم فيزياء نظرية وكوزمولوجيا بريطاني المولد، وكاتب علمي وأستاذ جامعي في جامعة ولاية أريزونا. يُعرف بأعماله في الفيزياء الكونية ونظرية الكم وعلم الأحياء الفلكي، إضافةً إلى مؤلّفاته التي تربط بين العلم والفلسفة والدين. اكتسب شهرةً عالميةً بفضل قدرته على تبسيط القضايا العلمية المعقّدة للقارئ العام.

ذلك، فإنّ القوانين [الفيزيائية] التي تسمح للكون بأن يخلق نفسه أكثر إثارةً للإعجاب حتّى من ساحر كوني». [Davies, Is the Universe a Free Lunch, Independent Journal, 3/3/1996]

وإنّ محاولة تقديم تفسير لبداية الكون بناءً على الانفجار غير واضحة؛ لأنّه مع ذلك يبقي السؤال: من الذي بدأه؟ ومن هو مُسَبِّب تلك البداية؟ من أين أتى الكون إلى الوجود؟ من لا شيء! اللاشيء أصبح كلّ شيء وبدون أي مسبّب، وهذا ضرب لأصل العلّية!

فلا يمتلك أصحاب النظرية المادّية تفسيرًا لأصل الكون، سوى أن يقولوا: إنّ الكون ظهر فجأةً من لا شيء، دون سبب سابق، كأنّ قوانين الفيزياء نفسها سحرت الوجود ليولد هذا العالم الهائل! لا أحد يدفعه، ولا أحد يوجّهه، كلّ شيء يحدث بموجب القوانين التي تحكم الطبيعة فقط.

يقول ستيفن هوكنج في كتابه "تاريخ موجز للزمن": «إذا كان لا مفرّ من الإقرار بأنّ للكون بداية، فلا بأس من القول بكونٍ مكتفٍ بذاته» [هوكنج، تاريخ موجز للزمن، ص 128]!

أي أنّ الكون هو الذي أوجد نفسه، وهذا صريح في ضرب أصل بدهية اجتماع النقيضين، فيدّعي أنّ الكون كان موجودًا وغير موجود في الوقت نفسه، وهل ذلك إلّا اجتماع النقيضين؟!

فهو يظنّ أنّ المسألة تحلّ بحلٍّ لغويٍّ، ولم يعلم أنّ حلّه هذا هدم لما جاء به من دعاوى.

الأمر الذي يعود بنا إلى نقطة البداية والتساؤل نفسه: كيف أمكن له الوجود من دون موجد؟

3ـ اختراع أمور غير واقعية وليست علميةً:

لإنقاذ نظرية الانفجار العظيم وتصحيح أصلها، لجأ علماء الكونيات إلى ابتكار ما يُسمّى بـ"المادّة المظلمة"، وهي كيانات غير مرئية وغير قابلة للرصد، تظهر فقط عند الحاجة لتوليد قوّة جاذبية هائلة. وهذا الافتراض لا يعدو كونه تشويهًا للعلم من أجل تمرير معتقداتهم، وكان الأولى بهم أن يعترفوا بعجزهم وقصور معرفتهم، أو أن يحترموا حدود تخصّصهم فيقولوا: هذا ليس من مجالنا، وهو ما من شأنه أن يعزّز الموضوعية العلمية. أمّا التدخّل في غير تخصّصهم، وحشر أفكار يفترض أنّهم أدرى بها من غيرهم، ثمّ محاولة تسويقها للعامّة وكأنها حقائق يقينية مسلّم بها، فهذا خلاف الأمانة العلمية.

4ـ لم في هذا الوقت؟ (ضرب أصل قاعدة استحالة الترجيح بلا مرجّح)[16]

لمن يدّعي أن الكون بدأ من تلقاء نفسه قبل 13.8 مليار سنة، وأنّه لا وجود لخالق، يطرح هذا السؤال: لماذا هذا التوقيت بالذات؟ لماذا لم يبدأ الكون قبل 15 مليار سنة، أو بعد 10 مليارات سنة من الآن؟

هذا التساؤل يكشف عن وجود (عامل مُرَجِّح) جعل البداية في ذلك الزمن بالذات. ووجود مُرَجِّح يعني أنّ النقطة المفردة (Singularity) لم تكن موجودةً بمفردها، بل هناك شيء آخر هو الذي رجّح ظهورها وأوجدها في ذلك الوقت بالذات. وإلّا لزم الترجيح بلا مُرَجِّح، وهو باطل منطقيًّا.

وهذا المعنى هو ما أشار إليه الفيلسوف المؤمن ريتشارد سوينبرن (Richard Swinburne) في "برهان فترة الترك" حيث يقول: «إذا كان العدم يمتدّ إلى ما لا نهاية في القدم، وإذا كان للكون بداية، فلم نشأ الكون في هذا الوقت الذي نشأ فيه؟ لم تُرك الكون دون نشأة لفترة، ثمّ حدث في وقتٍ ما في الزمن اللانهائي أن خرج الكون للوجود؟ لا بدّ أن هناك عاملًا مرجّحًا دفعه للوجود (INDUCTIVE FACTOR OR CREATIVE FACTOR)» [انظر: عمرو شريف، رحلة عقل، ص 81 و82].

5ـ كيف للذرّات البسيطة أن تولّد الذكاء والحياة والأخلاق (ضرب أصل قاعدة السنخية)

يواجه من يعتمد على الانفجار العظيم لتفسير نشوء العالم كلّه إشكاليةً جوهريةً في تفسير كيفية نشوء الحياة والوعي والأخلاق من ذرّات غير عاقلة. يطرح عالم الأحياء الكونية بول دافيس الإشكال: «كيف للذرّات الغبية أن تقوم بكتابة برمجتها الخاصّة ...؟ لا أحد يعرف ... فلا يوجد قانون معروف في الفيزياء قادر على خلق معلومات من لا شيء».

[Davies, P. The Fifth Miracle: The Search for the Origin and Meaning of Life. Simon & Schuster]

هذا التعقيد غير القابل للتصديق في الترتيبات اللازمة لإنتاج الحياة هو ما دفع الفيلسوف الإنجليزي أنطوني فلو للتخلّي عن إلحاده معلنًا: "لا بدّ من تدخّل كيانٍ ذكيٍّ".

[Flew, A. There Is a God: How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind. Harper One]

16- من القواعد المهمّة والتي تنصّ على أنّه «إذا تساوى أمران أو احتمالان، فلا يمكن ترجيح أحدهما على الآخر دون وجود سبب أو مبرّر (مرجّح)». فمثلًا، إذا كان لديك خياران متطابقان تمامًا، فلا يمكنك اختيار أحدهما دون سبب يجعله أولى.

أمّـا الفيلسـوف الأمريكـي تومـاس نيغـل (Thomas Nagel) فيقـرّ صراحـةً بوجـود معضلـة كـبرى: «الأشـياء الفيزيائيـة والكيميائيـة تعطـي نتائـج فيزيائيـة وكيميائيـة، لكـنّ الأفـكار والأخـلاق ليسـت مسـألة فيزيـاء وكيميـاء» [Nagel, T. Mind and Cosmos: Why the Materialist Neo-Darwinian Conception of Nature Is Almost Certainly False]. ويؤكّـد أنّ المادّيـين لا يملكـون حجّـةً معقولـةً ذات احتماليـة غـير قابلـة للنقـض لتفسـير ظهـور الحيـاة تلقائيًّـا.

الخاتمة

في البدء لا بدّ من الإشارة إلى أنّ مناقشة هذه المسألة (الانفجار العظيم) من لحاظ حملها أثرًا عقديًّا و تأثيرها على الرؤية الكونية، وذلك بضرب بعض الأصول العقلية المهمّة والقواعد البدهية.

وانطلاقًا ممّا سبق، يتّضح أنّ نظرية الانفجار العظيم تهدف إلى تفسير كيفية نشأة الكون، وقد سعى بعض الباحثين إلى توظيفها لدعم فكرة نشوء الكون من لا شيء، وبالتالي استبعاد فرضية وجود خالق.

تعود الجذور التاريخية للنظرية إلى بدايات القرن العشرين، في حين يعود تاريخ تسميتها إلى منتصف القرن نفسه.

تبيّن أنّ النظرية تفتقر إلى أبسط مقومات النظريات القابلة للاختبار التجريبي، بل إنّ بعض المدافعين عنها وقعوا في إشكالات منهجية نجم عنها مخالفة القواعد الفطرية التي يعتمدونها في إثبات مسائل علومهم؛ إذ لم تُعرض المسألة بصورة تتوافق مع شروط وضوابط النظرية والفرضية العلمية. ويمكن إجمال أبرز الملاحظات على هذه النظرية فيما يلي:

أوّلًا: خروج النظرية عن نطاق اختصاص العلم التجريبي؛ إذ تقتصر وظيفة الفيزياء على دراسة كيفية حدوث الظواهر (الكيف)، في حين أنّ بحث أصل الوجود (العلّة الأولى) يدخل في نطاق الفلسفة والميتافيزيقا.

ثانيًا: غياب الموضوعية لدى بعض الباحثين المتبنّين للنظرية؛ إذ يلجؤون إلى تأويل الأدلّة وتوجيهها بما يتوافق مع مقدّماتهم المسبقة ومعتقداتهم الذاتية.

ثالثًا: قيام النظرية على مفاهيم مجهولة وغير قابلة للتحقّق التجريبي، مثل النقطة المتفرّدة (Singularity)، وما قبل الانفجار العظيم، والمكان الذي كانت توجد فيه تلك النقطة، وغيرها من المسائل المعلّقة.

رابعًا: قصور النظرية عن تقديم تفسير مقنع لنشأة الحياة، ولا للتطوّر البيولوجي، ولا للذكاء الملاحظ في الكائنات الحيّة.

خامسًا: حتّى مع التسليم بصحّة النظرية كتفسير لآلية التوسّع الكوني، فإنّها لا ترتبط منطقيًّا بإثبات وجود خالق أو نفيه؛ ذلك أنّها كما أُشير سابقًا تتناول جانب الكيفية (كيف تمّ التوسّع؟)، في حين أنّ سؤال العلّة الفاعلية الأولى (من أوجد الكون؟) يخرج عن نطاق اختصاصها، وليس من شأنها تقديم إجابة عنه.

قائمة المصادر

نهج البلاغة.

إبن سينا، حسين بن عبدالله، الإشارات والتنبيهات، نشر البلاغة، قم، 1383 ش.

إبن سينا، حسين بن عبدالله، برهان الشفاء، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم، 1404 هـ.

ابن بابوية، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا، انتشارات جهان، طهران.

الجابري، محمد عابد، مدخل إلى فلسفة العلوم، العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، مركز دارسات الوحدة العربية، بيروت، ط 5، 2002 م.

الجعفي، المفضل بن عمر، توحيد، تحقيق كاظم المظفر، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط 2، 1404 هـ.

الحسيني الطهراني، محمد الحسين، معرفة الإمام، دار المحجة البيضاء، بيروت، 1416 هـ.

الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج، مطابع النعمان، النجف الأشرف، 1966 م.

الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تحقيق علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط 5، 1363 ش.

زكي نجيب محمود وأحمد أمين، قصة الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2018م.

شريف، عمرو، رحلة عقل، تقديم أحمد عكاشة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2010 م.

كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014 م.

مجموعة من المؤلفين، الموسوعة الفلسفية، دار الطليعة، بيروت، 1980 م.

هايزنبرغ، فيرنر، الفيزياء والفلسفة: الثورة في العلوم الحديثة، ترجمة وتقديم خالد قطب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط 1، 2014 م.

هوكنج، ستيفن، التصميم العظيم، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 2013 م.

هوكنج، ستيفن، تاريخ موجز للزمان، ترجمة مصطفى ابراهيم فهمي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 2016 م.

وينبرج، ستيفين، الدقائق الأولى من عمر الكون، ترجمة محمد وائل لأتاسي، الدار المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، ط 1، 1986 م.

Bertrand Russell and Frederick Copleston, The Existence of God, in John Hick, ed., The Existence of God, New York: Macmillan, 1964.

Davies, P. The Fifth Miracle: The Search for the Origin and Meaning of Life, Simon & Schuster, New York, 1999.

Flew, A. There Is a God: How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind. HarperOne, NewYork, 2007.

Hawking, S., & Mlodinow, L. The Grand Design, Bantam Books, NewYork, 2010.

Heinz Pagels, Perfect Symmetry: The Search for the Beginning of Time, Bantam Books, NewYork, 1985.

Greid, J.Y.T. ed., The Letters of David Hume, Oxford: Clarendon Press, 1932.

Nagel, T, Mind and Cosmos: Why the Materialist Neo-Darwinian Conception of Nature Is Almost Certainly False". Oxford University Press, 2012.

Victor Stenger, Has Science Found God?, Free Inquiry, Vol. 19. No. 1, 2004.

Robert Jastrow, Message from Professor Robert Jastrow", LeaderU.com, 2002.

Davies, Paul, Is the Universe A Free Lunch", Independent Journal, 3/3/1996.

Weyl, Hermann, Philosophy of Mathematics and Natural Science, Princeton University Press, 1949.